أسئلة محرجة إلى قمّة الدوحة الطارئة

عائشة بلحاج

لم تُظهر القمّة العربية الإسلامية في الدوحة ما هو جليّ، وهو انعدام القدرة على اتخاذ قرار حقيقي، بل أظهرت الأدهى من ذلك بوضوح، أي حالة العجز التي تجلّت في محاولة إظهار قوّة. فخرجت بصيغة بيان أقرب إلى محاولة حفظ ماء الوجه، لكنها محاولة غير موفقة في التعبير عن الواقع، فكل ما كان يتطلّبه الأمر إعلان تهديد حقيقي ليحدُث تغييرٌ على أرض الواقع. كل ما عدا ذلك إقرار بالعجز عن الصد، والعجز عن تحقيق وحدة القوى، مع وجود عدد لا بأس به من دول مطبّعة، أو شبه مطبّعة، لا تريد العودة عن طريق شائك مضت فيه بعيداً، وأخرى أدركت الحقيقة التي كانت تتجاهلها، أن إسرائيل قنبلة خطيرة قابلة للانفجار في كل المنطقة.

هل الإبادة في غزّة، والتعذيب الوحشي للناجين لا يكفيان لتتحدّ الدول العربية والإسلامية موقفاً صارماً؟ هل اقتحام دول مجاورة، وقصف أخرى لا تشكل أي خطر مباشر على إسرائيل، ولا تنطلق من أرضها صواريخ، لا يشي بمستقبل خطير يستدعي تهديداً صريحاً؟ أي تهديد كان سينفع، ولو مجرّد رمي حجر.

لنتخيّل لو أعلنت هذه الدول عقوبات اقتصادية، كيف كان ليكون الأثر؟ مع أن قليلاً من الشجاعة كان كافياً للتلويح بأمور أهم، تشبه التهديد الإسرائيلي الذي كان صريحاً ومدوّياً. قولاً أولاً، حين هدّد نتنياهو قبل فترة باستهداف أي جهة عربية بلا استثناء، وثانياً، عبر حركته أخيراً في القيام بعمل عسكري خطير داخل دولة عربية، لا هي بالمجاورة ولا بالمهاجمة، بعد أن استباح حرمة دول مجاورة بدون تردّد، بدعوى وجود قوى معادية فيها.

ماذا ينتظر المجتمعون أكثر من هذا؟ قصفٌ أوسع لدولة أخرى؟ عمليات اغتيال واسعة المدى في كل الدول العربية؟ فقط ليلوّحوا بإجراءات حقيقية تفوق التنديد الشديد؟ نتنياهو يعرف العجز العربي منذ فترة، وإلا لما جرؤ على القصف، وهو شبه مطمئن أن العرب لن يهبّوا، ولن يغضبوا بشكل مقلق، والآن تأكد له الأمر.

إسبانيا التي لم يتم قصفها ولا تهديدها، ألغت صفقة سلاح بمليار دولار مع إسرائيل، والمغرب يشتري أجهزة أمنية منها إلى حد الآن. أفرادٌ مختلفون في العالم لا يمسّ الإجرام الإسرائيلي سوى ضمائرهم، أعلنوا مقاطعة العمل مع الشركات الإسرائيلية، رغم أن هذا سيؤثر على مستقبلهم المهني، حتى لو اعتبرناها حكمة من لا يريد الانجرار إلى معارك غير محمودة العواقب، مع وكيلة الولايات المتحدة، وهم يدركون جيداً أن المعركة تقودها واشنطن لا غيرها، ولا يريدون الدخول في معركة معها. لكن الحقيقة أن واشنطن على «شجاعتها ووقاحتها» في عهد الكائن البرتقالي، تخاف أيضاً من العقوبات الاقتصادية. رأينا الكائن وهو يهدد الصّين بإجراءات جذرية، ثم رأيناه وهو يتراجع بلا تردد، حين لوّحت الصين بالمقابل. ورأيناه سابقاً في برنامج تلفزيون الواقع «المقاول» وهو يحترم المشاركين المتهورين لأنهم يمتلكون شجاعة الهجوم على المنافسين. هذا كائنٌ يعيش على فكرة الهجوم للنجاح.

فكيف يُحرجه فعل خجول، متردد، ملطّف، عديم الأثر واقعياً؟

هل عجزت القمّة الإسلامية عن إطلاق تهديد واحد مقابل أطنان إسرائيلية منها؟ جديدها أخيراً إعلان الطموحات التوسعية لإسرائيل بشكل سافر، بينما كان الأمر مجرد تهويم داخلي. ألا تجد الدول المعنية الأمر خطيراً جداً، لأن التصريح به يعني أن المرحلة المقبلة هي السعي إلى التنفيذ؟

الحقيقة أن صعوبة الوصول إلى لغة أشد في البيان، لا تقف خلفها الدول والأنظمة المطبعة رسمياً وحدها، لأن التطبيع شمل دولاً أخرى تحت الطاولة. وما كان الإعلان سوى خطوة سياسية. رغم أن الدول المطبّعة نفسها تعاني مشكلة أخرى عويصة، هي أنها تدفع ثمن التطبيع الخاضع الذي دخلت فيه برعاية أميركية، لكن أميركا الحالية، أكثر من أي وقت آخر، لا يوثق بجانبها. لم تكن ننتظر أشياء كثيرة من القمة، لكن كنا نأمل بجُرعة شجاعة أكبر، لأن الواقع خطير جداً، لكنها اختارت لطف التنديد، أي ببساطة عدم خطو أي خطوة لدرء الخطر. ألا تعلم أن الجمود في المكان رد فعل الخائف لا فعل الحكيم؟

حين يصبح «التحليل السياسي» أداة تضليل

اسامة ابو ارشيد

ثمّة خطٌّ رفيع يفصل بين الأمل والوَهْم. الأمل شعورٌ يَنبثق من إمكانية واقعية للتحقق. إنه اعتقاد عقلاني قائم على حسابات منطقية وحقيقية، ومن ثمّ فإنه، إن أحسن تأطيره وتوظيفه، قد يكون دافعاً للجهد والعمل لتحويل الأفكار والطموحات إلى خطوات عملية وواقع معاش. في المقابل، يقوم الوَهْم على اعتقاد راسخ بشيء زائف أو خيالي، لا يعترف بالحجج العقلية والأدلة الواقعية، بل يقاومها، إن لم يتجاهلها في سبيل الهدف المنشود، وإنْ كان مستحيلاً. وتشير دراسات نفسية إلى أن الخط الفاصل بين الأمل والوَهْم قد لا يكون واضحاً لمن يقاوم الانجراف بين تياراتها، ما يزيد من احتمالات الانزلاق فيه من سياق الأمل إلى سياق الوَهْم. وتتضاعف خطورة ضبابية الخط الفاصل بين الأمل والوَهْم حين يُساء استخدام الدين وتوظيف المُقدّس والتعسّف في تفسير النص أو إسقاطه على الواقع شديد التعقيد، لا لمحاولة إعادة تكييفه وتغيير ديناميكياته، بل لإنكاره أصلاً والتشبث بواقع افتراضي زائف غير قائم، وأمل مغشوش لا أفق له. ينطبق الأمر نفسه على بعض أدعياء «التفكير الاستراتيجي» الذين يهملون الواقع وتحدّياته المائلة والعاصفة التي تكاد تقتلع أوتاد الخيام، إن لم تكن قد اقتلعتها فعلاً، في حين يخوضون هم في استشرافات مستقبلية قائمة على تخرّصات وتكهّنات لا دور لهم في تحقيقها، أو أنها قد تكون (الاستشرافات) داخلة في سياق «الأهداف غير المقصودة» أو «النتائج غير المتوقعة». يؤدي إلى نتائج كان من الأفضل توقعها مسبقاً. ومن ثمّ، فإن التفكير المتفائل شيء، والتفكير الوَهْميّ شيء آخر. الأول محمود وإيجابي، والثاني مذموم وكارثي. وكما جاء في الأثر: «إن الرائد لا يَكْذِبُ أهْلَه».

أتمنى أن تكون الرسالة الضمنية وصلت، حيث التصريح بحتاج سياقات أوسع وأعمق وأكثر تحوّطاً وحذراً حتى لا تكون دعوة إلى الانهزام أو الانكسار، أو يُساء فهمها على أنها كذلك.

(كاتب فلسطيني في واشنطن)

الصين والشرق الأوسط والقضية الفلسطينية

علاء الترتير

بعد مرور ما يقارب العامين على الإبادة الجماعية المستمرّة في قطاع غزّة، طرح محاججتين للدور الإقليمي والعالمي الذي يمكن أن تلعبه الصين في السياق الحالي المضطرب للشرق الأوسط واستحضارهما. أولاً، يتمثل السؤال الجوهري بماهية «الأولويات الإستراتيجية» للصين قوة عالمية عظمى. لا شك أن هناك «مصالح واهتمامات إستراتيجية» للصين في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وبصورة أكثر تحديداً في منطقة الخليج العربي ودول مجلس التعاون الخليجي، غير أنّ ثمة فارقاً واضحاً بين «المصالح الإستراتيجية» و«الأولويات الإستراتيجية» بالنسبة لقوة كبرى ذات ثقل عالمي كالصين.

ثانياً، دوماً يطرح السؤال المتكرّر: هل يقدّم النموذج الصيني ونهجه الدولي بديلاً قابلاً للتطبيق وللحياة في ميدان القيادة العالمية؟ الإجابة، من حيث المبدأ، نعم، إذا ما رغبت الصين في ذلك، غير أنّه، من منظور إقليمي شرق أوسطي، لا يبدو أنّ هناك ما يكفي من الإرادة السياسية والقيادية الصينية لتحقيق هذا التوجّه. فما نلحظه، في المقام الأول، يتمثل في شراكات اقتصادية كبرى، واختراق دبلوماسي مهم تمثل في التقارب الإيراني- السعودي، بيد أننا نلحظ، في الوقت نفسه، ممارسة براغماتية قائمة على المعاملات والتعاملات السياسية، وخطوات سياسية محدودة ومحسوبة بدقة، يمكن اختزالها في الرسالة التالية: لنقدّم لمنطقة الشرق الأوسط ودول مجلس التعاون الخليجي على وجه الخصوص إشارة بأن في وسعها التوجه شرقاً حيث يوجد شريك جذّاب، ولكن من دون أن نُفرِط أنفسنا عليها كما تفعل الولايات المتحدة.

في ضوء هاتين الملاحظتين الهيكليتين، تبرز حجة مقابلة مفادُها بأنّ الصين تنشط على نحو أكبر خلف الكواليس، بحسب ما يؤكده مسؤولون وصنّاع قرار صينيون، غير أنّ المقاربة الصينية حيال الشرق الأوسط، القائمة على الموازنة بين الطموح والحذر، تثير تساؤلات حول مدى قدرة بكين على رسم المسارات المستقبلية، وحول ما إذا كانت أفعالها ستغدو أكثر وضوحاً وأعلى تأثيراً في تشكيل التصوّرات، بحيث يُنظر إليها فاعلاً يتطلع كذلك إلى ممارسة القيادة العالمية. وفي هذا السياق، يشكّل استمرار حالة عدم الاستقرار الإقليمي اختباراً حقيقياً للتكلفة البديلة لاستراتيجيتها القائمة على تجنّب المخاطر. إذ تمثّل الصين اليوم شريكاً اقتصادياً رئيسيّاً لمعظم دول المنطقة، إذ بلغت التجارة بين الصين ومنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا 368 مليار دولار في العام 2022، وهو مبلغ مذهل مقارنة بـ144 مليار دولار بين الولايات المتحدة والمنطقة في العام نفسه. وبلغت قيمة الاستثمارات الصينيّة المتراكمة وتمويل التنمية في المنطقة 152 مليار دولار بين عامَي 2013 و2021. وقد زوّدت المنطقةُ حوالي نصف إجمالي واردات الصين من النفط الخام في العام 2023.

> المقاربة الصينية حيال الشرق الأوسط، القائمة على الموازنة بين الطموح والحذر، تثير تساؤلات حول مدى قدرة بكين على رسم المسارات المستقبلية

وعليه، يمكن تفسير سياسة الصين وإمكانية تطوّرها في المستقبل بأربعة طرق على الأقل. التفسير الأول، أنّه على الرغم من توسّع التجارة والاستثمار وصورة بكين المتنامية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، تكتفي الصين بالبقاء بعيدة عن الأضواء وبحرية التصرّف لتجنّب التورّط في الصراعات الإقليمية المعقّدة، وتواصل التركيز على بناء روابط اقتصادية مع الأطراف كافة استناداً إلى مبدأي الحياد وعدم التدخّل. ويُشدّد التفسير الثاني على أهميّة المنطقة الحيويّة بالنسبة إلى الصين لمواردها من الطاقة وموقعها الجيوستراتيجي للتجارة البحرية مع أوروبا وأفريقيا، لتفسير السبب وراء اهتمام القيادة العليا الصينية المتزايد بالمنطقة. ونتيجة لذلك، أصبحت بكين أكثر استباقية في انخراطها مع المنطقة. أمّا التفسير الثالث، فهو أن تمسّك الصين المستمرّ بسياسة الحياد ومبدأ عدم التدخّل لم يعد يخدم مصالحها المتنامية في المنطقة أو مكانتها بوصفها قوة عظمى صاعدة. ويتمحور التفسير الرابع حول القيود الكبيرة التي تواجه بكين في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في حال سعت إلى تحدّي مكانة الولايات المتحدة. ولكن تظلّ بكين في النهاية قوة حذرة حقّقت إنجازات كبرى من خلال تبنّيها مقاربة بعيدة عن الأضواء تركّز على الأهداف التجارية في المنطقة، ومن المرجّح أن تواصل تفضيلها مقاربة طويلة الأمد وصبورة ومدروسة بعناية تعتمد في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على مبادرة الحزام والطريق والمؤسسات المتعددة الأطراف، مثل منظمة شنغهاي للتعاون والبريكس+ لتحقيق تقدّم ثابت.

فيما يتعلق بفلسطين، السؤال في نهاية المطاف: هل يمكن، أو هل تهتم الصين فعلاً بالدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة حول القضية الفلسطينية؟ إلى حين معرفة الإجابة، ثمة خيارات عدة للصين، لتنخرط فيها كطرح ائتلاف جديد للوساطة من أجل السلام، وإعادة الإعمار، والتنمية لتبني على مساهماتها في ملف المصالحة الفلسطينية- الفلسطينية والوساطة بين السعودية وإيران. كذلك يمكنها الاستثمار في إعادة ابتكار وإقامة مؤسّسات الحوكمة العالمية كالأمم المتحدة ومؤسّساتها، وليس فقط الانخراط في محاولة إصلاحها، فالخلل بنيوي وجوهري ويتطلب تقديم فعل راديكالي يعنون الخلل من الجذور. وعلى الصين أيضاً فرض عقوبات صارمة على إسرائيل لقيادة العالم من خلال نموذج يُحتذى به فيما يتعلق بالمساءلة، وإبراز قيادة ذات أهمية وذات صلة لتحقيق السلام العالمي. ولكن تظلّ بكين في النهاية قوة حذرة حقّقت إنجازات كبرى من خلال وارادت الصين من النفط الخام في العام 2023.

وعليه، يمكن تفسير سياسة الصين وإمكانية تطوّرها في المستقبل بأربعة طرق على الأقل. التفسير الأول، أنّه على الرغم من توسّع التجارة والاستثمار وصورة بكين المتنامية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، تكتفي الصين بالبقاء بعيدة عن الأضواء وبحرية التصرّف لتجنّب التورّط في الصراعات الإقليمية المعقّدة، وتواصل التركيز على بناء روابط اقتصادية مع الأطراف كافة استناداً إلى مبدأي الحياد وعدم التدخّل. ويُشدّد التفسير الثاني على أهميّة المنطقة الحيويّة بالنسبة إلى الصين لمواردها من الطاقة وموقعها الجيوستراتيجي للتجارة البحرية مع أوروبا وأفريقيا، لتفسير السبب وراء اهتمام القيادة العليا الصينية المتزايد بالمنطقة. ونتيجة لذلك، أصبحت بكين أكثر استباقية في انخراطها مع المنطقة. أمّا التفسير الثالث، فهو أن تمسّك الصين المستمرّ بسياسة الحياد ومبدأ عدم التدخّل لم يعد يخدم مصالحها المتنامية في المنطقة أو مكانتها بوصفها قوة عظمى صاعدة. ويتمحور التفسير الرابع حول القيود الكبيرة التي تواجه بكين في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في حال سعت إلى تحدّي مكانة الولايات المتحدة. ولكن تظلّ بكين في النهاية قوة حذرة حقّقت إنجازات كبرى من خلال تبنّيها مقاربة بعيدة عن الأضواء تركّز على الأهداف التجارية في المنطقة، ومن المرجّح أن تواصل تفضيلها مقاربة طويلة الأمد وصبورة ومدروسة بعناية تعتمد في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ترتكز على مبادرة الحزام والطريق والمؤسّسات المتعددة الأطراف، مثل منظمة شنغهاي للتعاون والبريكس+ لتحقيق تقدّم ثابت.

فيما يتعلق بفلسطين، السؤال في نهاية المطاف: هل يمكن، أو هل تهتم الصين فعلاً بالدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة حول القضية الفلسطينية؟ إلى حين معرفة الإجابة، ثمة خيارات عدة للصين، لتنخرط فيها كطرح ائتلاف جديد للوساطة من أجل السلام، وإعادة الإعمار، والتنمية لتبني على مساهماتها في ملف المصالحة الفلسطينية- الفلسطينية والوساطة بين السعودية وإيران. كذلك يمكنها الاستثمار في إعادة ابتكار وإقامة مؤسّسات الحوكمة العالمية كالأمم المتحدة ومؤسّساتها، وليس فقط الانخراط في محاولة إصلاحها، فالخلل بنيوي وجوهري ويتطلب تقديم فعل راديكالي يعنون الخلل من الجذور. وعلى الصين أيضاً فرض عقوبات صارمة على إسرائيل لقيادة العالم من خلال نموذج يُحتذى به فيما يتعلق بالمساءلة، وإبراز قيادة ذات أهمية وذات صلة لتحقيق السلام العالمي. ولكن لا ننسى الاختراق الاستخباراتي، فالتطبيع يمنح «إسرائيل» فرصة الوصول إلى بنى تحتية حسّاسة في دول الخليج العربية وبخاصة في قطاعات الطاقة والاتصالات والبيانات. كما أن لدى «إسرائيل» خبرة في بناء شبكات نفوذ داخل الدول عبر الاقتصاد والشركات الأمنية، ما يهدّد سيادة القرار الوطني. وليس مستبعداً البتة أن تستغل «إسرائيل» وجودها على أرض الخليج العربي، لتحرير صدام مباشر مع إيران فوق الأرض الخليجية، ما يعرّض المنطقة لخطر حروب بالوكالة.

أضف إلى ما سبق ذكره خطر انقسام الهوية الوطنية، فالتطبيع يفكّك الإجماع الوطني حول قضايا جوهرية مثل فلسطين والعداء للكيان الصهيوني، فإن يكن الرفض الشعبي والاحتجاجات غير ظاهرة حالياً، إلا أن تراكم مفاعيل التطبيع سوف يخلق اضطرابات مستقبلية، وسوف تتأكل السيادات الوطنية لو أصبحت «إسرائيل» هذه جزءاً من البنية الأمنية الخليجية (عبر الدفاع السيبراني أو نظم المراقبة)، إذ يمسي القرار السيادي مكشوفاً ومقيّداً. كما أنّ استخدام المال الخليجي لتمويل مشاريع تخدم «إسرائيل» استراتيجياً إنّما يصبّ في الأجندة الإسرائيلية الإقليمية ومشروعها للسطو والهيمنة. هذا عدا الأخطار على الأمن الغذائي والموارد، واستخدام الثقافة لتغيير وعي الأجيال الجديدة في اتجاه قبول «إسرائيل» كأنّها أمر طبيعي، على حساب الذاكرة التاريخية للقضية الفلسطينية. ولا ننسى الاختراق الاستخباراتي، فالتطبيع يمنح «إسرائيل» فرصة الوصول إلى بنى تحتية حسّاسة في دول الخليج العربية وبخاصة في قطاعات الطاقة والاتصالات والبيانات. كما أن لدى «إسرائيل» خبرة في بناء شبكات نفوذ داخل الدول عبر الاقتصاد والشركات الأمنية، ما يهدّد سيادة القرار الوطني. وليس مستبعداً البتة أن تستغل «إسرائيل» وجودها على أرض الخليج العربي، لتحرير صدام مباشر مع إيران فوق الأرض الخليجية، ما يعرّض المنطقة لخطر حروب بالوكالة.

خاطب الشاعر نزار قباني العرب بعد نكسة 1967 قائلاً: «أفيقوا... أفيقوا فقد أكل الذئب ما يبنكم وأنتم نيام/ وأنتم على رفّ أحلامكم تُسقطون النجوم وتغفو الخيام»، ولا يزال نداء قباني ساري المفعول في دنيا العرب، والأرجح لأن العرب في حالة نوم أبدي لا صحوة منها. وقد جاء في ديوان العرب: «لقد أسمعتَ لو ناديت حيّاً/ ولكن لا حياة لمن تنادي». يا لبؤس واقعنا العربي، وبئس المصير.

(كاتب وأكاديمي لبناني)

هل يعي العرب أخطار الشراكة مع الكيان الصهيونيّ العدوانيّ؟

جورج كعدي

لستُ أدري من أين يستمدّ بعض العرب، وبالأخصّ بعض دول الخليج العربي، ذاك الاطمئنان لشراكة مستقبلية، اقتصادية وأمنية وسياسية، مع الكيان الصهيوني، في حين أنّ على كل عربيّ أن يحصي عدد أصابع يده بعد مصافحة صهيونيّ طمّاع بثروات العرب ويخطط للاستيلاء عليها بطرائق شتى. ما هي ضمانة عرب الثروة في عقد مثل هذه الشراكة الخطيرة على خيراتهم وثرواتهم، ومن أين يستمدّون تلك الثقة بأنهم محميّون ومحاطون لأخطار سيطرة وهيمنة تنتظرهم إن هم شرّعوا أبوابهم للكيان اللص، المارق والقاتل والعدوانيّ الذي لا صديق له ولا حليف إلا نفسه، ولا مصالح في الدنيا إلا مصالحه، وياتي ليوهم العرب بأنّه ينشد شراكة اقتصادية وتكنولوجية وإنمائية وسياسية معه، فيما لا تعدو نيّاته كونها نيات سطو على مقدّرات المنطقة وسرقتها والتحكّم فيها وتملّكها بالكامل في النهاية، وما انفكّ عرب الثروة يوهمون أنفسهم بأنّهم محصّنون ضدّ أخطار مماثلة! ولكن بماذا؟ هل بالقوانين الدولية التي لا تخضع الدولة المارقة «الاستثنائية» لأيّ منها؟ هل بالنظام المالي العالميّ الذي تسيطر عليه الصهيونية العالمية أو خدّامها الغربيون في أوروبا والولايات المتحدة وحتى في روسيا والصين المتصهينتين (غرّة تشهد)؟ كيف يحمي العرب أنفسهم من الفجور الإمبركيّ والإسرائيليّ الذي لا همّ له إلا سلب العرب ثرواتهم الضخمة وخيراتهم وكل ما أنجزوه في مجتمعاتهم حتى الساعة؟

إلى عرب الخليج والثروة الحقائق الآتية: التطبيع الاقتصادي والسياسيّ بين دول الخليج العربي و«إسرائيل» يُطرح و«يُسوّق» إبراهيميا (بما لنفاق التسمية الدينية لإمرار الخديعة) باعتباره «فرصة» استثمارية وتنموية و«ازدهار» للمنطقة، في حين أنّه يحمل للعرب أخطاراً استراتيجية عميقة الأثر على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ففي الأخطار السياسية، يُفقد التطبيع المجاني دول الخليج ورقة مهمّة كانت تستخدمها لدعم القضية الفلسطينية للتوازن مع الغرب والضغط عليه، إذا توافرت الإرادة لدى جميع التيارات في مناخ ديمقراطي سلمي، حيث يُهزم الفكر بالفكر لا بالاستئصال، وحيث يتصارع السياسي لا بالسلاح بل بالبرامج والخيارات.

القمة العربية والإسلامية لن تُقاس بما فيها من هتافات أو خطب رنانة، بل بما تضعه من سياسات استراتيجية وخطط عملية تنأى بالمنطقة عن الابتزاز. لقد آن الأوان أن ندرك جميعاً أن أي خذلان لبلد عربي أو مسلم هو خذلان لنا جميعاً. ولعلّ الخلل الذي ألقاها الرئيس السوري أحمد الشرع، وكأنت الأقصر في كل القمم العربية، تصلح اليوم شعاراً سياسيّا بامتياز، إذ اقتصرت على بيت عريق للشاعر الجاهلي عمرو بن براقة الهمداني اليماني:

متى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيَّ وصارِماً/ وأنْفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْكَ المَظالِمُ

لا يمكن للخطاب النقدي أن يكون مجرّد نفخة غضب بلا مسار؛ عليه أن يحمل الشعر والتاريخ والمنطق معًا، فالشعر، في لحظات الحزن هذه، يذكّرنا بأن للكرامة ذبذبةً لا تُقاس بالموازنات، والتاريخ يُعلّمنا أننا قادرون على أن ننتصر بذكاء وصبر، لا بالتفاهت، على المسرحيات الإعلامية. إننا نحتاجُ إلى استراتيجية تُترجم شعورَنا بالظلم إلى سياسةٍ تحرّرنا من أن نكون لعبةً في أيادٍ صفرت ضمائرها أمام مصالحَ باردة.

وختامًا، تمثل محاولة الغدر بالوسيط، وابتذال قيم الحوار، سقوطًا أخلاقيًا مروّعًا، ليس للمنطقة وحدها بل للإنسانية جمعاء. إنها وصمة تُضاف إلى سجل الصهيونية التي لا تهدّد العرب وحدهم، بل تسوق البشرية بأكملها نحو الدمار الشامل، فلنحوّل دمعة المنديل إلى صرخة كرامة، ولنُعِد للإسلام روحه المحرّرة التي تحمي المستضعف وتُقوّي صوته، بدل أن نتركه مطيّةً للطغاة والمتطرفين ومظلّةً لخطابات الكراهية. فالإسلام الحق لا يُسوّغ استبدادًا، بل يفتح أفق الحرية، ويُذكّر الإنسان بكرامته التي لا تُباع ولا تُشترى.

(كاتب سوداني في الدوحة)

> الإسلام الحق لا يسوغ استبداداً، بل يفتح أفق الحرية ويذكّر الإنسان بكرامته

قطر بين ذاكرة الدهشة وغضبة الأدعم

الوليد آدم مادبو

هناك لحظات في تاريخ الأمم لا تُقاس بالخسائر المادية وحدها، بل بمدى قدرتنا على صون الكرامة في وجه المهانة. وحين رأينا صور الغطرسة الصهيونية تُعرض على الملأ بلا وجل، أيقنّا أن الدعمة التي تُمنح بالمذبل لم تعد تكفي، وأن المذبل ذاته قد تحوّل إلى راية احتجاج صامدة تتوافق وكبرياء الأدعم (علم قطر الوطني). إنها لحظة تختلط فيها رهافة الوجدان بصلابة الرفض، ويغدو الغضب العربي غضبًا أخلاقيًا قبل أن يكون عسكريًا: غضبًا يذكّرنا بأن الصمت على الخذلان هو تمهيدٌ للعار، وأن الكرامة لا تُستعاد إلا حين تتحوّل الدموع إلى صرخات واعية تُقاوم الابتزاز وتفضح الزيف. وليس غريبًا أن يكون الاستهداف موجّهًا إلى الدوحة، واحدة من أكثر العواصم التزامًا بالشرعية الدولية واحتفاءً بالسلم. فحين يُستهدف عاصمة جعلت من الوساطة لغةً، ومن القانون الدولي سلاحًا، ومن السلم خيارًا استراتيجيًا، لا يعود الأمر مجرّد عدوان على دولة صغيرة، بل هو طعنٌ في فكرة السلم نفسها، واستهزاء بالمنظومة الدولية التي طالما تغنّى بها الغرب. إن الغدر بالوسيط ليس ضربًا من قلة الأخلاق فحسب، بل رسالة متعمدة يؤدي إلى نتائج كان من الأفضل توقعها إلا إلى المدافع، وإلى الشرعية لا إلى العربدة. لم يكتف الاستعمار الحديث باحتلال الأرض، بل صنع تطرفًا وغذّاه، ثم استخدمه ذريعة لتفتيت المنطقة وشلّ قدرتها عن الفعل الجماعي. واليوم، بعد أن شبّ هذا التطرف عن الطوق، صار عائقًا أمام التحرير الذي جاء الإسلام في جوهره ليؤسسه، لذلك لا بد أن نرفض أن تكون العوبة في يد الإمبريالية التي تُشعل النار وتذعي إطفاءها. لقد انحدرنا إلى هذا الدرك السحيق بسبب الاستبداد العروبي والإسلاموي معًا، اللذين حوّلا رسالتَي العروبة والإسلام من لاهوتٍ للتحرير ونصرةٍ للمستضعفين إلى أداةٍ للطغيان وتبرير للظلم. إننا نحتاج اليوم إلى مرونة في الأعراف بالتنوع السياسي والاجتماعي، وصلابة في الدفاع عن الكرامة والسيادة، وقبل ذلك إلى إعادة قراءة الإسلام رسالةَ تحرير تُطلق طاقات الشعوب ولا تُقيّدها، رسالةً تُبشّر بالعدل والرحمة لا بالاستبداد والإقصاء.

وهنا يبرز الموقف القطري، بعكس ما يروّج بعضهم، خيارًا براغماتيًا لا عقديًا، فقطر لم تتبنَّ الإسلام السياسي أيديولوجيا، لكنها تقرّ بأنه جزء أصيل من النسيج الاجتماعي العربي والإسلامي، وأن استبعاده بالقوة لا يجلب إلا الخراب. المطلوب أن تُتاح المجال للتدافع الحيوي بين جميع التيارات في مناخ ديمقراطي سلمي، حيث يُهزم الفكر بالفكر لا بالاستئصال. وحيث يتصارع السياسي لا بالسلاح بل بالبرامج والخيارات.

القمة العربية والإسلامية لن تُقاس بما فيها من هتافات أو خطب رنانة، بل بما تضعه من سياسات استراتيجية وخطط عملية تنأى بالمنطقة عن الابتزاز. لقد آن الأوان أن ندرك جميعًا أن أي خذلان لبلد عربي أو مسلم هو خذلان لنا جميعًا. ولعلّ الخلل الذي ألقاها الرئيس السوري أحمد الشرع، وكأنت الأقصر في كل القمم العربية، تصلح اليوم شعارًا سياسيًا بامتياز، إذ اقتصرت على بيت عريق للشاعر الجاهلي عمرو بن براقة الهمداني اليماني:

متى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيَّ وصارِماً/ وأنْفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْكَ المَظالِمُ

لا يمكن للخطاب النقدي أن يكون مجرّد نفخة غضب بلا مسار؛ عليه أن يحمل الشعر والتاريخ والمنطق معًا، فالشعر، في لحظات الحزن هذه، يذكّرنا بأن للكرامة ذبذبةً لا تُقاس بالموازنات، والتاريخ يُعلّمنا أننا قادرون على أن ننتصر بذكاء وصبر، لا بالتفاهت، على المسرحيات الإعلامية. إننا نحتاجُ إلى استراتيجية تُترجم شعورَنا بالظلم إلى سياسةٍ تحرّرنا من أن نكون لعبةً في أيادٍ صفرت ضمائرها أمام مصالحَ باردة.

وختامًا، تمثل محاولة الغدر بالوسيط، وابتذال قيم الحوار، سقوطًا أخلاقيًا مروّعًا، ليس للمنطقة وحدها بل للإنسانية جمعاء. إنها وصمة تُضاف إلى سجل الصهيونية التي لا تهدّد العرب وحدهم، بل تسوق البشرية بأكملها نحو الدمار الشامل، فلنحوّل دمعة المنديل إلى صرخة كرامة، ولنُعِد للإسلام روحه المحرّرة التي تحمي المستضعف وتُقوّي صوته، بدل أن نتركه مطيّةً للطغاة والمتطرفين ومظلّةً لخطابات الكراهية. فالإسلام الحق لا يُسوّغ استبدادًا، بل يفتح أفق الحرية، ويُذكّر الإنسان بكرامته التي لا تُباع ولا تُشترى.

(كاتب سوداني في الدوحة)

كاريكاتير **عماد حجاج**

عن لقاء معرفي عربي

معن البياري

أمر طيّبٌ أن تجتمع نخب عربية مثقفة للتداول في شؤون الأمة، وأن تستضيف جامعةٌ من القطاع الخاص جمعاً كهذا، بالمشاركة مع مؤسّسة أهلية تُعنى بالبحث والدرس، فأمرٌ يستحقّ التنويه والتمثين. وأن يُتاح لهم أن يندوا في الذي يتداولونه بحرّية ظاهرة، فيليق بهذا الحال عظيم التقدير. وأن تتنوّع المنظورات التي يصدُر عنها ناسٌ هذا المنتدى في رؤاهم بشأن قضايا غير قليلة متعلّقة بالراهن العربي وأثقاله الضاغطة، فلا بُد أن يحوز هذا المشهد، بتفاصيله هذه، ما يتجاوز الاستحسان إلى الإعجاب... والحديث هنا عن منتدىً استضافته جامعة العلوم التطبيقية الخاصّة في عمّان، بالتعاون مع مركز إيلاف للدراسات، وأخذ عنوانه «عوالم الصراع في الشرق الأوسط: المصائر والمآلات»، وشارك فيه مؤرّخون وباحثون وإعلاميون من سورية والأردن ولبنان وقطر والعراق والكويت والسعودية ومصر والإمارات، وتعدّدت الموضوعات التي تداولوا فيها، في عدّة جلساتٍ في يومين. تباينت مستويات العروض والمقاربات والمداخل، وأوضحت خلافاتٌ في وجهات النظر والتحليل بين عدّة مشاركين أن الثقافة السياسية هي ما يؤطّر الموقف الذي يتّخذه المثقف العربي، وليس بالضرورة أدواته في النظر في هذه الواقعة السياسية أو تلك. وبمقدار ما كان مُستغرباً من أستاذٍ للتاريخ أن يستغرق في الحديث عن «أذرع إيران»، في لحظةٍ شديدة السخونة، من فرط توالي الاعتداءات والاستباحات الإسرائيلية في غير بلد عربي، وفي غضون المذبحة اليومية في غزّة، بل والمستغرب من صاحبنا أن يلمّح إلى «حماس» واحدةً من هذه الأذرع، وإلى أنها قامت بعملية 7 أكتوبر بإتساقٍ مع حسابات إيرانية. وإذ كان حضور حرب الإبادة في غزّة عريضاً في مشاركات المنتدين، بدا طبيعيّاً أن يُؤتى على موضوعة الحركة الإسلامية المجاهدة، التي لا يجوز، بحسب أستاذ للعلوم السياسية، في أثناء مداخلة التمويت المتواصلة، انتقادها، الأمر الذي كان له نصيبٌ من جدال. أما الجدال الأوسع فتعلّق بما كان موضع استهجانٍ عريض، بل واستنكار أيضاً، أن يتحدّث مثقف عراقي كردي عن «احتلال» دولٍ عربيةٍ أراضي للاكراد، ويُتكلّم بلغة «موسّسة» بتعبير باحثٍ عراقيٍّ ردّ عليه.

ليس غرض هذا التعليق المتعجّل أن يبسط كل ما جاءت عليه مداخلات المنتدين في اللقاء الذي أقيم بلا أي رعايةٍ رسمية، وإن افتتح أشغالَه رئيس الوزراء السابق بشر الخصاونة، وإنما تأكيد المؤكّد عن حاجة النقاش السياسي العربي، في أوساط أهل الرأي والبحث، إلى فضاءاتٍ رحبة، وإلى تنويع المداخل فيه، والتحرّر من اليقينيات، فقضايا الشرق الأوسط الراهنة على كثير من التركيب. وفي محلّه ما ذهبت إليه الكلمة التعريفية بأعمال المنتدى، كما صدّرها مركز إيلاف، أن أزمات الشرق الأوسط ظلّت، في الأزمنة القريبة والبعيدة، عالقة بلا حلول جذرية. كما في محلّه أيضاً إتيانها على وصف الخبراء الشرق الأوسط بأنه «المنطقة الأكثر سخونةً سياسياً». وبالتالي، تبقى الجلسات السبع في يومي المنتدى محاولةً في «الإسهام بتطوير النقاش العلمي، واستشراف مستقبل المنطقة، والتفكير في مآلاتها»، وهو ما كتب مركز إيلاف إنه هذا مما يأمله. وإذ كان يؤمل أن يحظى هذا اللقاء لنخبة عربية متنوّعة في عمّان بإكتراث وسائل الإعلام الأردنية، وباهتمام أوساط المثقفين والمعلقين الأردنيين، وقبل كل هؤلاء وبعدهم، طلاب الجامعة المستضيفة، وإن انعقد الحدث قبل أن يلتحقوا بعامهم الدراسي الجديد، كان حسناً أن نسمع، نح

التعقيم المعنهج أحد أشكال الإبادة الجماعية

سوسن جميل حسن

التعريف الأكاديمي الأكثر انتشارا لمفهوم الإبادة الجماعية، جريمة تتمثل في القضاء المتعمّد والجزئي على مجموعة قومية أو إثنية أو دينية بطريقة منهجية، ما يعني أن أعضاء المجموعة يقتلون، أو يكسرون عقليّاً وجسديّاً، أو (يصبحون غير قادرين على الإنجاب)، من أجل جعل الحياة صعبة أو مستحيلة بالنسبة للمجموعة المستهدفة. وعرّفت المادة 2 من اتفاقية الأمم المتحدة الإبادة الجماعية كما اعتمدت في ديسمبر/ كانون الأول 1948، ودخلت حيز التنفيذ في يناير/ كانون الثاني 1951 بأنها: «أحد الأفعال التالية، المرتكبة (بنيّة) تدمير، كليّاً أو جزئيّاً، مجموعة قومية أو عرقية أو دينية»، ومن هذه الأفعال المقصودة بـ «التالية»: «فرض تدابير لمنع الولادات داخل المجموعة». إضافة إلى بقية الأفعال التي تنطبق على ما تفعله إسرائيل بالشعب الفلسطيني، ليس في الحرب الحالية على قطاع غزة فحسب، بل إن ممارساتها التي تخدم هذا الهدف مستمرة منذ عقود بحق الشعب الفلسطيني.

لا تنحصر الإبادة في فعل القتل المستمر والعمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي على مناطق قطاع غزّة بكل ما تحوي من بشر وحجر وشجر، من بنية تحتية ومدارس ومشافٍ ومراكز إغاثة وغيرها، مضافاً إليها سلسلة من جرائم القتل العنصرية التي يمارسها المستوطنون بحق سكان الضفة الغربية وتركهم من السلطة من دون عقاب، بل وتساعد في تسليحهم، فتساهم في القضاء على الشعب الفلسطيني، بل هناك أساليب خبيثة تفعل فعلها كما يفعل النخر في النسيج الحي فتأتي عواقبه مع الزمن.

تنطبق عبارة «فرض تدابير لمنع الولادات داخل المجموعة» على واقع الحال في قطاع غزّة كاملاً، وهذا يؤكّد الإبادة من جهة، ويؤكد مرامي إسرائيل ومعها حليفتها الولايات المتحدة حول الهدف الرامي إلى تهجير سكانه منه والسيطرة التامة عليه، وتحقيق حلم ترامب بتحويله إلى «ريفييرا الشرق». لا ينمو مجتمع إنساني ولا يستطيع العيش من دون صحة، أهم عنصر في منح الحياة «المرأة» وأمنها، والنساء الفلسطينيات والفتيات الشابات، بل حتى الطفلات منهن، في مرمى أخطار متزايدة، قبل أن يواجهن تحدّيات الأمومة والإرضاع والعناية بأطفالهن، بسبب الاكتظاظ في الملاجئ ونقص مرافق الصحة العامة، والعيش في دوّامة القلق والخوف بلا انقطاع، كما تقول إحدى الأمهات، وقد جرى تهجيرها 20 مرة على الأقل: في شمال غزّة، لم يعد الفرار يقاس بالكيلومترات، بل بالذهاب والإياب غير المجدي. تدفعهم العمليات العسكرية الإسرائيلية، بلا مأوى ولا وجهة، تطول لياليهم لتصبح بلا نهاية، ونهاراتهم مرصودة للبحث عن شربة ماء، أو كسرة خبز بعد أن صارت حلماً، أو خيمة لا تمنع عنهم برداً أو مطراً أو قيظاً، أو قنابل وصواريخ حاقدة. من مخيم إلى آخر، حتى كثبان الشاطئ الرملية التي قد يبتلعها الموج في أي لحظة لم يعُد فيه مكان لخيمة. وفي هذا الدوران المذعور في كل الاتجاهات، يمررن مع أطفالهن الذين بقوا في قيد الحياة، وفق قانون الاحتمالات فحسب، بالجثث المتفحمة المرمية في الطرقات وبين الأنقاض، وكبار السن الذين تُركوا لأن سيارات الإسعاف لم تعد تستطيع الوصول إليهم، والرحلات سيراً على الأقدام فوق طاقتهم.

> ما تمارسه إسرائيل بكل وحشية في غزّة يهدد، ليس جيلاً كاملاً فحسب، بل يقتل مستقبل شعب ويبيده بالكامل

> يعتمد بقاء آلاف الحوامل على القابلات، اللواتي يواصلن تقديم الرعاية، «غالباً تحت نيران القصف وعلى ضوء الهاتف المحمول فقط»، ويعشن الظروف القاتلة نفسها

أمّهات يناضلن من أجل العثور على الغذاء والماء والرعاية الطبية (المفقودة) والمأوى لأطفالهن. أما ما تفعل بهن هذه الحرب الحاقدة، فحكاية أخرى، مطعونات في أمومتهن منذ أن تكون الأمومة مجرّد مقدّمات بيولوجية يتحضّر لها جسد الطفلة الأنثى كي تقوم بهذه الوظيفة البيولوجية التي تمنحها إياها الطبيعة، ومن بعدها حلماً صار يائساً، لكن الأمومة في غزّة تُلاحق وتستهدف بخبث وشرّ. فعدا الظروف غير الإنسانية التي تعيش فيها الفتيات، والجوع الممنهج والعيش في ظروف تذبح الكرامة وتنتهك الجسد، فإن المرأة الحامل تخوض حرباً وجودية أخرى، فالحرب تدمّر المستشفيات وأماكن الرعاية، وعديد من مراكز الصحة الأولية وبرامج معالجة سوء التغذية لدى الأطفال اضطرّت إلى إغلاق أبوابها بسبب القصف، وبحسب وكالة الأمم المتحدة للصحة الإنجابية، فإن آلافاً من الحوامل يعتمد بقاؤهنّ على القابلات، اللواتي يواصلن تقديم الرعاية، «غالباً تحت نيران القصف وعلى ضوء الهاتف المحمول فقط»، ويعشن الظروف القاتلة نفسها. تقول المديرة الإقليمية للدول العربية في صندوق الأمم المتحدة للسكان، ليلى بكر: «لكل أم وكل طفل حق في ولادة آمنة وبداية جيدة في الحياة. ومع ذلك، نحن نشهد إنكارًا منهجيًا لهذه الحقوق الأساسية، ما يدفع جيلًا كاملاً إلى حافة الهاوية».

لقد انخفض معدل الولادات بنحو 41% منذ العام 2022، وزادت حالات الإجهاض بنسبة 300%. تزايدت وفيات الأمهات في أثناء الولادة: 220 أمًا توفين خلال الربع الأول من عام 2025، أي أكثر من 20 مرّة مقارنة بالفترة نفسها في عام 2022، بين يناير/ كانون الثاني ويونيو/ حزيران 2025، توفي ما لا يقل عن 20 مولوداً جديداً خلال 24 ساعة من ولادتهم. وُلد ثلث الأطفال بشكل مبكر، وكان لديهم نقص في الوزن أو اضطررنا إلى إدخالهم للعناية المركزة لحديثي الولادة، لقد تراجع الوصول إلى الرعاية الأساسية لحديثي الولادة بنسبة 70%، كما تصرّح.

وفي ظلّ التجويع الذي تمارسه إسرائيل، فإن المرأة الحامل، أو المرضع، زيادة على جوعها ونقص التغذية وفقر الدم بسبب انعدام الوارد الغذائي، فإن البدائل الدوائية غير متوفّرة لصون الحمل وصحّتها كحمض الفوليك وأملاح الحديد والفيتامينات المتعددة وغيرها من المكمّلات الضرورية للحمل، ما يزيد من خطر تشوّهات الأجنة، عدا الخطر على صحة المرأة وحياتها، وعدا العقاقير الضرورية من أجل سير المخاض المتعثر أو تدبير حالات التسمم الحملي وإرقاء النزيف في حال حدوثه.

يطول الحديث عن أخطار الحرب، وتهديد الحياة باستهداف صانعات الحياة وصاحبات البطون الخلاقة، بطرائق ممنهجة ومدروسة بعناية فتصيب الحياة بمقتل في كل تفصيل منها، لكن لا بد من لفت الانتباه إلى أمر آخر من ضمن أمور لا تعدّ ولا يمكن حصرها لكثرتها، مشكلة لا يمكن التنبؤ بنتائجها بشكل دقيق، وهي تخص حديثي الولادة الذين انفصلوا عن أمهاتهم عند الولادة خلال عمليات إخلاء المستشفيات يعيشون الآن مع أشخاص آخرين، قد يكونون هم أنفسهم مصابين أو معاقين أو غير قادرين على العناية بهم بشكل صحيح، ومواليد آخرين تركتهم الحرب دون هوية قانونية، حيث إن انهيار البنية التحتية المدنية الرئيسية يمنع تسجيل الولادات. تقدر دائرة الشؤون الإنسانية التابعة للأمم المتحدة (أوتشا) عدد المواليد الجدد الذين لم يتم تسجيلهم في السجل المدني منذ 7 أكتوبر (2023) بنحو عشرة آلاف. كذلك فإن نقص الوثائق الرسمية، أو غيابها، يحدّ من وصول هؤلاء الأطفال إلى الخدمات الأساسية، مثل الصحة والتعليم والمساعدات الإنسانية، في ما لو توفرت.

في غزّة، عواقب الأزمة الإنسانية على النساء الحوامل والمواليد الجدد كارثية. وفقاً لوكالة الأمم المتحدة المعنية بالصحة الجنسية والإنجابية، فإن سوء التغذية وانهيار نظام الرعاية الصحية والتوتر الشديد يهدد حياة جيل كامل. لا بل إن ما تمارسه إسرائيل بكل وحشية في غزّة يهدد، ليس جيلًا كاملًا فحسب، بل يقتل مستقبل شعب ويبيده بالكامل.

ما يميز هذا الجرم (الإبادة الجماعية) عن جريمة أخرى مثل جريمة ضد الإنسانية هو النية المحددة لتدمير المجموعة المستهدفة، كما جاء في المادة 2 المذكورة آنفاً، وإن مفهوم النية هو الذي يعطي مصطلح الإبادة الجماعية خصوصيته الكاملة، لكن إثباته، بحسب بعض المختصين، يوصف بأنه دقيق وصعب، كما يقول ثايس بوفكنغيت، الخبير في الإبادة الجماعية الذي عمل مع المحكمة الجنائية الدولية، في مقابلة مع وكالة الأنباء الفرنسية. «يجب إثبات أنه كانت هناك نية، وأن هذه النية كانت التفسير الوحيد الممكن لما حدث»، فهل بعد كل ما يجري يصحّ السؤال عن توفر «النيّة» في الإبادة لدى إسرائيل؟ إنها، وعلى الرغم من توافر كل الشروط التي تؤكّد النية على الإبادة الجماعية، ترفض وتستنكر بشدة الادّعاءات المتعلقة حتى بالجرائم ضد الإنسانية وليس الإبادة، واصفة إياها بأنها «أكاذيب صارخة»، وتصرّ على أنها تمارس حقها في الأمن والدفاع عن النفس، الحجة التي يتبناها حلفاؤها، وأقوى حليف لها، الولايات المتحدة.

(كاتبة سورية في برلين)

القراءة الجامعة في النصوص التراثية

سيف الدين عبد الفتاح

بعد القراءة العالمة التي تحدثت عنها مقالات سابقة، كانت القراءة الجامعة؛ تعلمت معنى القراءة الجامعة بين النصوص من أستاذتي منى أبو الفضل، رحمة الله عليها، وكذا البروفيسور برفيز منظور حينما اتبعا طريقة في الجمع بين الكتب المختلفة في عرض على صعيد واحد؛ فنظم بين المؤلفات الموضوع المتحد، وكأن بين تلك الكتابات حواراً مثمراً ومقارناً من نوع خاص؛ ملاحظة زوايا النظر المختلفة، انفتحت فيه أفق القراءة الجامعة والناظمة والمقارنة في آن واحد؛ وقمت بتجربة ذلك في كتاب تحت الطبع، وخصوصاً في الجزء الثاني منه الذي شكل قراءة منهاجية لنصوص تراثية متنوعة، يجمعها موضوع واحد، العلاقة بين «العالم والسلطان».

في القراءة الجامعة، نجد الموضوع مناسبة، والنصوص ميداناً للتفاعل معها بقراءة، أو إن شئت الدقّة، بمشروع قراءة، نحاول أن نجمع فيه ونستدعي كل ما يرد على الفكر والتفكير من آليات المنهج في النظر والتناول والتعامل. كطريقة جامعة لكل معاني القراءة المفتوحة الحاوية لعناصر الضبط والتنوع الذاتي والاجتهاد القرائي في التعامل مع النصوص؛ فماذا عن حقيقة الاختلاف ضمن البيئة المعرفية الإسلامية؟ وماذا عن طبيعة الصور التي يتخذها؟ وماذا يترتّب على هذه الرؤية في النظر إلى قواعد التعامل وأشكال العلاقات المختلفة؟ المقارنة بين النصوص التراثية بما تقتضيه القراءة المنفتحة ووفق أصول المنهاجية المقارنة؛ وفق جهات الاختلاف وعناصر الائتلاف، وجهات الاختلاف أربع (المكان، والزمان، والأشخاص، والأحوال)؛ وجهات الائتلاف (الاشتراك والتشابه، والتناظر، ...)؛ الدراسة وفقاً لهذه العناصر المختلفة وتقاطعها وتفاعلها تحرّك أصول البحث في السياقات المختلفة، والسياق هنا مفهوم متّسع ممتد، منه ما يتعلق بالمؤلف وسياقاته النفسية والسيكولوجية، ومنه ما يتعلق بالنصّ وتتابعاته ومكوناته (مقدّماته وتركيباته ومنهجه، وعباراته)، أي بمعنى السياقات الداخلية للنص، ومنها كذلك ما يتعلق ببيئة النص الخارجية والوسط التاريخي الذي يتحرّك فيه (من زمان ومكان وبشر وأحوال)، وهو كذلك يتحرّك ضمن سياقات أخرى متقاطعة.

> القراءة الجامعة في شكل القراءة المقارنة؛ ذلك أن المقارنة تملك تأثيرات مباشرة في العمليات المنهجية المختلفة فإنها كذلك تتحرّك صوب تفسير النتائج ذاتها

> نستدعي كل ما يرد على الفكر والتفكير من آليات المنهج في النظر والتناول والتعامل

> الرؤية المقارنة تساهم في الكشف عن عناصر قراءة المسكوت عنه داخل النص، خصوصاً حينما يكون الموضوع واحداً

النصوص التبعية في تحليل نص أو أكثر يفصح عن آلية تتمثل في «استدعاء نصوص» لفهم نص أو نصوص؛ نحن هنا أمام آلية غاية في الأهمية تتسع من خلالها دائرة النصوص، سواء تعلق الأمر بالمفكر وحدة للتحليل (أو الفكرة أو النص وحدة التحليل، مع مراعاة الجمع بين هذه النصوص باستخدام آلية المقارنة، والتناص، سواء كان ذلك يعني التعرف إلى النص وفهمه مفرداً أو التعرّف إليه بمعاونة النصوص الأخرى، آلية الجمع بين الآراء كما عبر عنها «ميزان الشعراني» وسعة النص ومسار الشريعة (المتصل الاجتهادي). الجمع بين رؤى مختلفة حيال قضية ما يفرض علينا، في ضوء المنهاجية المقارنة، أن نتحرّك صوب إمكان الجمع بين هذه المواقف والاجتهادات في ما يمكن تسميته المتصل الاجتهادي الذي يسع المواقف والاجتهادات على اختلافها ضمن الجهات التي تؤدّي إلى ذلك من أشخاص، وأماكن، وأزمان، وأحوال. وكذا آلية تكامل القراءات (قراءة الاختلاف، قراءة الائتلاف، الجمع بين القراءات، قراءة الاستثمار والاعتبار)، وهي أصل منهجي يقوم على قاعدة من تكامل القراءات، بحيث يمكننا تصوّر أن هذه القراءات تتحاور، أو تتشاور ضمن قراءاتٍ شوريةٍ يستشير فيها النص غيره، فيستدرك هنا أو يكمل هناك أو يتحفظ أو يخصّص أو يقيّد أو يفصل المجمل. إنها وظائف مهمّة تتحرّك صوب التفسير المدقق الذي لا يعتمد قراءة أولية للنص يتوقف عندها أو ينكفئ عليها. ولعل تكامل القراءات جزء من عمليات التكامل المعرفي والبحثي والمنهجي.

القراءة الجامعة في شكل القراءة المقارنة؛ ذلك أن المقارنة تملك تأثيرات مباشرة في العمليات المنهجية المختلفة، فإنها كذلك تتحرّك صوب تفسير النتائج ذاتها، المقارنة تفتح أفق القراءة، وتحدّد مفاصل المقارنة ومحكّاتها، وتضبط وجهات التفسير، قد تأتي القراءة للنص المغلق بنتائج تختلف اختلافاً واضحاً أو جدياً، فإنه بالمقارنة تتضح أوزان التفسيرات وتوجهاتها وهي ضمن هذه المسافات، تحرّر مناطق النزاع إن وُجدت، وتحقق أصول التشابه والاختلاف، وتقوم أوزان النتائج والعلاقات.

إن الرؤية المقارنة تساهم في الكشف عن عناصر قراءة المسكوت عنه داخل النص، خصوصاً حينما يكون الموضوع واحداً، ويختلف الكاتب في الأداء وفي الهدف وفي المنهج، وفي غير ذلك مما قد تختلف فيه النصوص موضع المقارنة. حينما أشرنا إلى آلية استدعاء النصوص، فربما هنا كنا نقصد «الاستدعاء الموضوعي»، أي استدعاء جملة من النصوص في الموضوع نفسه، إلا أن هذا الاستدعاء يجب ألا يقف عند هذا الحد، بل ربما يتطرّق إلى نوع آخر من استدعاء نصوص، وهو استدعاء نصوص أخرى للمؤلف، يمكن أن تساهم في تفهم رؤيته من خلال النص موضع التحليل.

وفي هذا السياق، فإن مدخل هذه القراءة الجامعة تسوّغه تلك المقولة الناظمة، أن في اختلاف المسالك راحة للسالك وإعانة له على ما أراد من بلوغ الأرب والتوصل إلى المُراد بفعل تعدّد النصوص ضمن موضوع بعينه يُحسن الوقوف عند هذه القراءة الجامعة، وكل الآليات المنهجية التي يفرضها تعدّد النصوص من جانب، وتوسل المنهاجية المقارنة من جانب آخر؛ وتتحرك هذه القراءة الجامعة في مستويات ثلاثة:

أولها: قراءة الاختلاف، أي جملة الاختلافات البارزة التي يجب أن تتخذ في الاعتبار عند عملية الجمع بين القراءات، وحتى لا تعتبر عملية الجمع قفزاً على جملة الاختلافات وبنياتها وتأثيراتها وضرورة تحرير الاختلاف ومداه وطبيعته، من مثل هل يعتبر الاختلاف مجرد اختلاف ظاهري أم عارض أم متوهم أم خلاف جوهري وحقيقي ومعتبر؟

ثانيها: قراءة الائتلاف، أي البحث عن أصول المشترك بين جملة النصوص المختلفة التي تشكل بدورها مداخل مهمة لإمكانات الجمع بين النصوص، لإمكانية الخروج من الاختلاف إلى الائتلاف من دون أن يكون ذلك اعتسافاً أو تلفيقاً أو توفيقاً من غير شروط منهجية.

ثالثها: وإذا كان المستويان تفرضهما عناصر المنهاجية المقارنة بالبحث في الفروق والاختلافات من جهة والنظائر والمشتركات والمؤتلفات من جهة أخرى، فإن هذا المستوى الثالث ينطلق من هاتين القراءتين، إلى القراءة الجامعة، التي لا تعبر عن مجرد الجمع الميكانيكي بين النصوص، بل جمع يستند إلى أصول منهجية من جانب وتفاعل من جانب آخر، يتحرك ضمن رؤى متعددة ومتعاضدة في سياق القراءة الجامعة وهي تجمع بين هذه النصوص وقراءاتها من أكثر من طريق أو مسلك ما كان ذلك متاحاً أو مستطاعاً.

مستويات ثلاثة مهمّة مرهونة بممارستها المنهجية وطرائق الجمع بين النصوص، ويبقى المتحصّل بعد ذلك محرّراً محققاً محدّداً، يحرّر مناطق الاختلاف، ويحدد مجالات الائتلاف، ويحقق الجمع الواضح بين النصوص ومسالكه. وقراءة الائتلاف والاختلاف على التوازي أو على التوالي من الأهمية نفسها بحيث لا يسرف القارئ في مدخل على حساب الآخر، وتتحكّم فيه فكرة الاختلاف والتناقض والتضاد والتصارع والتنازع، أو تتحكم فيه في المقابل فكرة النظائر والتشابه فيهمل الفروق والمتميزات والمختلفات. إلا أن الواقع أن هناك حالاً ثالثة نخرج منها من الاختلاف إلى الائتلاف. يتحرك صوب هذه المعاني الماوردي في كتابه القيم أدب الدنيا والدين حينما يتحدث أنه «.... إذا تساوى جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة الفقر .. فيذهبوا ضيعة يهلكوا عجزاً، وإذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة ... وقد قال الله تعالى «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ»«وَلَا118 - 119]. والعبارة التي نبحث عنها حتى نتحرك صوب التعرف على هذه القراءات»... وإذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة (أي بالتكامل) متواصلين بالحاجة (أي مفتقرين بعضهم إلى بعض). بل إن ما نراه من مداخل اختلاف قد تتشكّل ضمن رؤية الائتلاف على مذهب الخروج من الاختلاف إلى الائتلاف وهو ما نجده ضمن هذه القراءة الجامعة فتجمع وتنظم بين المشترك الكامن في الموضوع الواحد.

(كاتب مصري في إسطنبول)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة عائشة بلحاج ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads